﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا عايشَ زَكَرِيَّا عليه السلام أَحْداثَ الأمورِ فيما رآه من أحوالِ مريمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلام وهو ما أشارتْ إليه الآيةُ السابقةُ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]، هنالك عَلِمَ عِلْمَ تذكُّرٍ؛ وتَجَدَّدَ اليَقِينُ عنده أنَّ اللّه سبحانه وتعالى في الإمكانِ أن يَخْرُقَ عادته لمن شاء بكلمته، ويُرزَقَه بولدٍ يَخلفُه ويكونُ له وليًّا، فتنبَّهَ إلى ما يَعْلَمُه حقَّ العِلْمِ؛ أنّه - سبحانَهُ - سَمِيعُ دعاءِ المُضطرّينَ، ومُجيبُ دعاءِ المُتوكّلينَ. وأنّ القادرَ على الإتْيانِ بالشّيءِ في غير أوانه، قادرٌ على الإتيانِ بالولدِ بعد فواتِ كلِّ الأسبابِ، فدعا ربَّه الذي عوَّده الإحسانَ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّدُنكَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لدن): بمعنى عندَ، ويقال: لَدُنْ، ولَدْ، ولُدْ، ولَدَى، ولَدُنْ أبلغُ من عند وأخصُّ، وتقولُ: وَقَفُوا له من لَدُنِ كذا إلى المَسجدِ، ونحوَ ذلك، إذا اتّصَلَ ما بين الشّيئَينِ، وكذلك في الزَّمان: من لَدُن طُلوعِ الشّمسِ إلى غُروبِها، قال:

فما زالَ مُهْري مَزجَرَ الكلبِ منهم*** لَدُن غُدْوةٍ حتى دنتْ لغُروبِ[2].

ولَدُنْ وَلَدَى ظَرْفَا مَكَان بِمَعْنَى: عِنْدَ، إِلَّا أَنَّهُمَا لَا يُسْتَعْمَلَانِ إِلَّا فِي الحَاضِرِ، يُقَالُ: لَدُنْهُ مَالٌ إِذَا كَانَ حَاضِرًا، وَلَدَيْهِ مَالٌ كَذَلِكَ، وَجَاءَهُ مِنْ لَدُنَّا رَسُولٌ، أَيْ: مِنْ عِنْدِنَا، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لَدَى فِي الزَّمَانِ، وفق المَعنى السِّياقيّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: 5] يريدُ السّرعَةَ في الإجَابَةِ[3]، وقولِه تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: 76]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/363.
(2) الخليل، العَيْن، والراغب، المفردات: (لدن).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (لدن).

واللَّدُنُ: اللَّيِّن من كُلِّ شيءٍ، ورُمْحٌ لَدْنٌ، والأُنثى لَدْنةٌ، والجمع: لِدَانٌ ولُدُنٌ، وامرأة لَدِنةٌ: ريّا الشّباب ناعمةٌ[1]. وسِرْنَا لَدُن غُدْوَةٍ: من طُلوع الشَّمسِ إلى غُرُوبِها، ومنَ المَجَاز: لَدُنَتْ أخلاقُه، وهو لَدِنُ الخليقةِ: لَيِّنُ العَريكةِ، وتَلَدّنْتُ في حاجتي: تمكّنْتُ وتلدَّنْتُ بالمكان: أقمتُ، وتلدّنَتْ عليّ راحلَتي إذا لم تَمْشِ[2]، وقدِ اصطفَى القرآنُ الكريمُ (لَدُن) على (عندك)، لِما تدلُّ عليه منَ الوقتِ الحاضرِ طمعًا في جُودِ الكريمِ جلَّ وعزَّ.

2) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: جذرُ الكلمة هو (سَمِع)، وأصلُ السَّمْع؛ سَمعُ الأصوات، ثم سُمّيتِ الأُذُنُ سمْعًا؛ لأنَّ السّمعَ بها يكون فيما بيننا، وهي المِسْمَعَةُ، والسَّمْعُ ما وقَرَ فيها من شيء تسمعُه. يقال: أساءَ سَمْعًا فأساءَ إجابةً، أي: لم يسمعْ حسنًا فأساءَ الجوابَ[3].

وسمّى الإجابَة سمعًا؛ لأنّها مع السّمعِ تكونُ في أكثر الأوقاتِ، والسّميعُ لا يقتضِي المسموعَ؛ لأنّ فعيلًا جُعلَ للمبالغةِ، وليس هو على مقتضَى فعل، والسَّميعُ من أسماء اللّه تعالى وهو لم يزلْ سميعًا، وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعُه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامَّة بها.

والثاني: سمعُ الإجابة منه للسائلين والدَّاعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم[4].

والسّمعُ في القرآن على وجهين: الأوّل: سمعُ الصوت، قال اللّه: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: 20] أي: يُعرضُون عنِ الإيمانِ، ويَنصرفونَ عنه انصرافَ مَن لا يستطيعُ سمعَهُ. الثّاني: القَبولُ والإجابةُ، وهذا هو المَعنَى السِّياقي؛ قال اللّه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مُجيبُه، وأنت تقولُ لصاحبكَ: اسمعْ نَصيحتِي مع أنك تعلَم أنّه يَستجيبُها، وإنّما تُريدُ: اقبل، ونحوُه قولُك لمن تُجلُّه: سمعًا وطاعةً، أي: أقبَلُ ما تَقُولُ، وأطيعُك فيه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23] أي: لسمّاهم سُمَعاءَ، ولم يُسمّهم صُمًّا بُكمًا[5].

(1) الخليل، العَينْ، وابن سيده، المحكم: (لدن).
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (لدن).
(3) الخليل، العَينْ: (سمع).
(4) السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى: 209.
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 254.

وقد اصطفَى النَّظمُ الكريمُ السَّميعَ على المُجيبِ إلماعًا بما يَقتضيه السَّمعُ من سُرعةِ الإجابةِ.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

عندما رأى زكريَّا ما أكرمَ اللهُ به مريمَ من رزقه وفضله، عند ذلك طمِعَ في الولدِ، – وكان آيسًا منْ ذلك؛ لِما أصابَهُ مِنَ الكِبَرِ هو وامرأتُه – توجَّه إلى ربه قائلًا: يا ربِّ أعطني من عندك ولدًا صالحًا مباركًا مُهذَّبًا، مُستويَ الخَلْقِ؛ لتكمُلَ النعمةُ الدينية والدنيوية بالذُّرية الطاهرة الأخلاق والآداب، إنك سميع الدُّعاء لمن دعاك، فأنتَ قادرٌ أن تَرزقَني الولدَ بعدَ هذا الكِبَرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

الآيـة استئنافٌ مسوقٌ لتحقيقِ ما خَطَر لزَكَرِيَّا عليه السلام من سوانحَ

قولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتحقيقِ ما خَطَر لزَكَرِيَّا عليه السلام من سوانحَ بعدَ التّحوُّلِ الفِكْريّ الطّارئ عليه[2]. والقصّةُ مُستقلّةٌ، سِيقَتْ في تضاعيفِ حكايةِ مَريمَ، لِمَا بينهما من قُوّةِ الارتباطِ، والتّداخُلِ، مع ما في إيرادِها من تقريرٍ، وبيانٍ لاصطفَاء آل عِمْرَانَ؛ فإنّ فضائلَ بعضِ الأقرباءِ أدلّةٌ على فضائلِ الآخَرين منهم.

سرُّ كمالِ الاتّصالِ بين مَطلعِ الآيةِ الكريمةِ، وما قبلها

أفـاد التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ الـنّـصّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المـرغـوبِ فيه بإرادة ذُريّة طيّبة

وقعتِ الجملةُ من قوله تعالى قبْلَها ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ موقعَ كمالِ الاتّصال؛ إذ كانت بمثابةِ عطفِ البيانِ؛ فبعدَ أن أجملَ في ذِكْرِ دُعاءِ زَكَرِيَّا فقال: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ فَذَكَرَهُ مُجملًا؛ فسَّر ذلك الإجمالَ، وبيّنَ ما تضمّنَه الدّعاءُ،

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.

وفصّلَ فيه القولَ فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ فكان محورُ دُعائِهِ أنْ يهبَ اللّه له الذُرّيّةَ الطّيّبةَ، وقد أفاد هذا التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ النّصّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المرغوبِ فيه فهو لايريدُ أيَّ ذُريّةٍ، لكنّه يريدُ ذُريّةً طيّبةً.

سر التّعبير بـ﴿هُنَالِكَ﴾، ووجه زيادة اللام فيه(1):

دَأْبُ الصّالحينَ اغْتِنامُ الأوقاتِ الّتي يُتوقّعُ فيها إجابَةُ الدُّعاءِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾ يقعُ على الزّمانِ والمَكانِ، وإنْ كانَ المكانُ أمْلكَ لهُ[2]. فأَكْثَرُ مَا يَقَعُ (هُنَا) ظَرْفَ مَكَانٍ، وهو أَصْلُهَا[3]، وهو اسْمٌ يُشَارُ بِهِ لِلْمَكَانِ القَرِيبِ؛ نَحْوَ قولِه: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: 24]، و(هناك) في كلام العرب إشارةٌ إلى مكانٍ فيه بُعدٌ، فإنْ ألحَقْتَهُ كافَ الخِطَاب دَلّ على المَكانِ البَعيد[4]. فتكون ﴿هُنَالِكَ﴾ أبلَغَ في الدَّلالةِ على البُعدِ[5]، ودخولُ اللّامِ وَالكَافِ عليه جعلَه لِلْبَعِيدِ؛ نَحْوَ قولِه: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: 11]. وخلاصةُ القولِ أنّه في ذَلِكَ المَكَانِ دَعَا زَكَرِيَّا، والكَافُ حَرْفٌ لِلْخِطَابِ، وبها تَصِيرُ (هُنَا) لِلْمَكَانِ البَعِيدِ عَنْكَ، وَدَخَلَتِ اللَّامُ لِزِيَادَةِ البُعْدِ، وكُسِرَتْ عَلَى أَصْلِ التِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ هي والأَلِفُ قَبْلَهَا، أو أنها كُسِرَتْ لِئَلَّا تَلْتَبِسَ بِلَامِ المِلْكِ[6].

مـن دَواعِـي إجابة الدّعاءِ أن يكونَ في أزمِنَةٍ، وأمـكـنَـةٍ لـها فضائلُ عندَ الله تعالى

بلاغةُ الاستعارَةِ في زمانيّة الظَّرفِ:

تأتي ﴿هُنَالِكَ﴾ للزّمانِ على سبيلِ الاستعارةِ، فيُشَارُ بِهِ لِلزَّمَانِ اتِّسَاعًا، وخُرِّجَ عَلَيْهِ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: 30][7]، فيُرادُ بها ظرفُ الزّمانِ[8]، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: " في ذلك

(1) وقد ذُكِرتْ فائدتُه. أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/359.
(3) العكبري، التبيان: 1/256.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(6) العكبري، التبيان: 1/256.
(7) السيوطي، الإتقان: 2/302، والسيوطي، معترك الأقران: 3/253.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.

المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت فقد يُستعار (هنا)، و(ثَمَّ)، و(حيث) للزمان"[1]، فإنْ حملْناهُ على المكانِ فهو جائزٌ، أي في ذلك المكانِ الذي كان قائمًا فيه عند مَريمَ في المِحرابِ، وشاهَدَ تلك الكراماتِ دعَا ربَّهُ. وإنْ حملْناهُ على الزّمانِ فهو جائزٌ أيضًا، يعني في ذلك الوقتِ دعا ربَّه[2]. أو سأل فيه مَريمَ فأجابتْهُ بقولِها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3]. وفائدةُ المجازِ شُمولُ الزّمانِ والمكانِ؛ إذ إنّ كِلَيْهما جائزٌ ومُرادٌ، فزَكَرِيَّا عليه السلام حَالَ ما رأى ما يحدثُ لمريمَ منَ الكراماتِ الإلهيةِ دعَا ربَّه فاجتمعَ فضل الزّمانِ والمكانِ في ذلك المَوقفِ العظيمِ، والخلاصةُ أنّ كلَّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ الوقتَ والزَّمانَ والمكانَ والحال كلَّه من دواعِي استجابةِ الدّعاءِ ومَظِنَّةِ قَبولِه، ولم يزلْ أهلُ الصّلاح يتوخَّوْنَ الأمكنةَ بما حدثَ فيها من خيْرٍ، والأزمنةُ الصّالحةُ كذلك، وما هي إلّا كالذّواتِ الصّالحةِ في أنّها مَحَالُّ تجلِّياتِ رضَا اللّه[4].

الدّعاءُ عِلمٌ لدُنّيّ يتجدّدُ ويتفعّلُ مع رُقيِّ الإنسانِ وسُموِّ رُوحِهِ في دَرجاتِ الإيمانِ والإحسانِ

وظهرتْ على زَكَرِيَّا كراماتُ هذه الكفالةِ، فتعلّمَ من مَكفولتِهِ أسلوبًا جديدًا في التّوسُّلِ واللُّجوءِ إليه - سبحانه - إذ يُكتنزُ في ﴿هُنَالِكَ﴾ دواعٍ لذلك الدّعاءِ في ذلك المكانِ وذلك الزّمانِ والحالِ؛ قال الحَرَالِّي: لمّا أشهدَهُ اللّه - سبحانه وتعالى - أنّه يَخرقُ عادتَه لمن شاء بكَلمتِهِ في حقِّ كفيلتِهِ في الظاهر، دعا ربَّهُ الذي عوّدَهُ بالإحسانِ أن يرزقَهُ ولدًا في غيرِ إبّانِه، كما رزقَ مريمَ رزقًا في غيرِ زمانِه، فوجبَ دعاؤُهُ[5].

بديع التناوب في التعبير عن التّوسُّلُ بالله تعالى بين: (الدّعاء) و(النّداء):

النِّداءُ عامٌّ يَحكي الحالَ الذي ألجأهُ إلى الدُّعاءِ، والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه

أطلقَ التّعبيرُ القرآنيُّ على التّوسُّلِ في موضعٍ دعاءً، وفي موضعٍ آخر نداءً، فقال في سورة مريمَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]. وقال هنا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾. فسمّى اللّه سبحانه سؤالَ

(1) العكبري، التبيان: 1/256.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/209.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/66.

عبادِهِ له دعاءً، ونداءً[1]، والفَرقُ في المعنَى ظاهرٌ جليٌّ لمن تدبّرَ، وتسميتُه نداءً لا يخرجُ عن كونِه عبادةً. فـ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾ المذكورُ في آل عمران، سمّاه في سورة مريمَ ﴿نِدَآءً﴾ [مريم: 3]، وتفسيرُ النّداءِ فيها وصفٌ للحالِ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 4، 5]، فشرحَ حالَه مُضمِّنًا ذلك توسُّلَه باللّه - سبحانه - أن يُغيّرَ حالَهُ، وهذا هو النّداءُ. ولعلَّ العلاقةَ بين الدُّعاءِ والنِّداءِ كالعلاقةِ بين الخاصِّ والعامِّ، فالنّداءُ هو حكايةُ الحالِ؛ يَحكِي الحالَ الذي ألجأَهُ إلى الدُّعاءِ؛ فالنِّداءُ عامٌّ والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه، أو أنَّ النّداءَ وصفٌ لحالٍ من أحوالِ الدُّعاءِ، والدُّعاءُ مُحتوَى النِّداءِ ومضمُونُه.

المعنَى المُكتنَزُ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾:

لما رأى زكريا عليه السلام حالَ مريمَ في كرامتِها على اللّه، ومنزلتِها رغِبَ في أن يكون له ولدٌ[2]. تذكُّرًا لما عوَّدهُم اللّه - سبحانه وتعالى - عليه من الإكرامِ، وقولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾؛ أيْ في المكانِ نفسِه[3]، وحدثَ ذلك قبل أنْ يخرُجَ، فالتقى الزّمانُ مع المكانِ، مع الحالِ، ويُؤكّدُ ذلك الردُّ المباشرُ للملائكة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾؛ فجمع بين الزّمانِ والحالِ والمكانِ، والمحرابُ مكانُ مريمَ الذي كانت مقيمةً فيه؛ إذْ توجّهَ إلى اللّه بالصَّلاةِ والدُّعاءِ، فنادتْهُ الملائكةُ على الفَورِ كما يُعلنُ عنه استخدامُ الفاء الطاوية الزَّمنَ بين الدُّعاءِ واستجابتِه. فيكونُ معنى ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الوقتِ والحالِ والمكانِ، وكلُّها عظيمةُ المقدارِ[4].

أسـالـيـبُ الـدّعـاءِ تتنوّعُ بتنوُّعِ الأحـوالِ والأشـخـاصِ، وخُـصـوصـيّـةِ الزّمانِ والمكانِ

بلاغةُ التّحوّلِ في الآية منَ الأسلُوبِ الخَبَريِّ إلى الإنشائيِّ:

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ انتقلَ الخطابُ منَ الأسلوبِ الخَبريِّ إلى الأسلوبِ الإنشائيِّ الذي جاء مَقولَ القولِ؛

النّفسُ المؤمنةُ ترتاحُ إلى تمجيدِ الذّاتِ الإلهيّةِ في خِطابٍ خاشعٍ

(1) أبابطين، تأسيس التقديس، ص: 77.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/387.
(3) الرّاغبُ، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

لبيانِ تفصيلاتِ ذلك الدُّعاءِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ فتضمّنَ الأسلوبُ الانشائيُّ النِّداءَ والأمرَ، اللّذين خرجَا إلى معنًى مَجازيٍّ واحدٍ هو الدّعاءُ.

بَلَاغةُ الالتِفَات منَ الغَائبِ إلى التّكلُّمِ مع التِّكرَارِ بينَهُمَا:

الالتفاتُ حيثُ جاء ضميرُ الغائبِ من قولِه: ﴿رَبَّهُۥ﴾ إلى ضميرِ التّكلّمِ في قولِه: ﴿رَبِّ﴾ فلمّا انتقلَ منَ الإجمالِ إلى التّفصيلِ التفتَ تبعًا لذلك منَ الغائبِ إلى المُتكلِّمِ ليتناسبَ حالُ الحُضورِ في اللِّسانِ والذِّهنِ، مع حضورِ القَلبِ في التّوسّلِ والدُّعاءِ، ومنْ ثَمَّ استحضارُ القُربِ منَ اللّه - تبارك وتعالى - لحظةَ الدُّعاءِ. وبين الكلمتَيْن: ﴿رَبَّهُۥ﴾ و﴿رَبِّ﴾ تكرارٌ؛ فائدتُه التّلذُّذُ بالذِّكر.

التفتَ منتقلًا منَ الإجمالِ إلى التّفصيلِ ليناسبَ حالُ الحُضورِ في اللِّسانِ والذِّهنِ مع القَلبِ في الدُّعاءِ

سِرُّ التعبير بجملة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

أطنبَ زَكَرِيَّا عليه السلام في الدّعاءِ طمعًا في حبِّ اللّه والتَّلذُّذِ في ذكرِهِ سبحانه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ ولو قال: ربِّ هبْ لي ذُرّيةً طيّبةً؛ لتحقَّقَ المعنَى المُرادُ. فقال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ رغبةً في زيادة ذكرِ اللّه، والتّوسُّلِ إليه سبحانه مع ما في ﴿لَّدُنكَ﴾ من دَلالةِ الحُضور، وطلبِ الإجابةِ السّريعةِ.

منْ مزايَا الدّعاءِ المُستجابِ الإطنابُ في ذكرِ اللهِ تلذُّذًا، والثّناءُ عليه تضرُّعًا

خُصوصيّةُ هذا الدُّعاءِ تُوحي باسْتِدعاء الكرمِ الإلهيِّ الذي لا تحدُّهُ حدودُ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتّكْوين؛ لأنّه يعلمُ أنّ حالتَه ممّا بلغَ منَ الكِبَرِ وحالِ امرأتِهِ العَجوزِ العاقرِ تمنعانِ الإنجابَ الطَّبْعِي، وَفْقَ السُّنن التي وضعَها اللّه تعالى في الخَلْقِ؛ فلمّا قال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أراد تجاوُزَ المُحدِّداتِ والموانعِ الطَّبْعيّةِ. فالفائدةُ في قولِه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ هاهنا أنَّ حصولَ الولدِ في العُرفِ والعادةِ له أسبابٌ مخصوصةٌ، فلمّا طلبَ الولدَ مع فُقدانِ تلك الأسبابِ كان المعنَى: أريدُ منك إلهي أنْ تعزلَ الأسبابَ في هذه الواقعةِ، وأن تُحدثَ هذا الولدَ

التعبير بـ (من لدنك) طلبٌ للولد بجَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتَّدبيرِ مسموحًا

بمَحْضِ قُدْرتِكَ من غيرِ تَوسُّطِ شيءٍ من هذه الأسبابِ[1]. فقد سألَ اللّه تعالى بقُدرتِهِ على جَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتَّدبيرِ مسموحًا، فدعاه وهو يعلمُ أنّه بحسب قانونِ الأسبابِ والمُسبّباتِ غيرِ مُؤهَّلٍ للإنجاب قطعًا، فسألَ اللّهَ بقُدرته. قال أبو زهرة: " ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، أي السبب يكون من عندك لا من عندي، لأن الأسباب عندي قد زالت، ولم يعد إلّا سببٌ منك، وإلّا معجزةٌ تكون فيها المانح المعطي من غير أي علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ التي لا تكاد تستعمل في القرآن إلّا في جانب اللّه تعالى يفيد العندية العالية السّامية، لا العنديّة القريبة المقارنة، ولا العنديّة المقاربة"[2].

بلاغة المَجَازِ المُرسل في لفظ (الطيّب):

إطلاقُ الطيّبِ على الصَّالحِ منَ الذُّريّة زيادةَ معنًى بصلاحَ الخُلُق، والخَلْقِ معًا، والدّين والطبع معًا

لمّا رأى زَكَرِيَّا من أحوالِ مريمَ تلك العجائبَ، وكان به حاجةٌ إلى الولَدِ مع كِبَرِ سِنِّهِ ووَهَنٍ من عظامِه، سأل ربَّه أن يهبَ له ذُرِّيَّةً طيّبةً، أي: صالحَةً، واستعمالُ الطيّبِ في الصّالحِ: كاستعمالِ الخبيثِ في ضدِّهِ، في نحو قولِه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: 26]، على أنّ في الطّيّب زيادةَ معنًى على الصّالح[3]؛ إذ تشملُ صلاحَ الخُلُق، والخَلْقِ معًا، وصلاحَ الدّين والطبع معًا، فكان جبلّةً طيّبةً وطبعًا صالحًا، يكون حَصانًا للدِّين والإيمان، فاستعمالُ الطّيّبِ لصلاح الذّريّة جاء على سبيل المَجازِ المُرسَلِ،، والعلاقةُ اللّزومُ؛ فالذّريّةُ الطيّبةُ هي التي يأتي منها أنواعُ الصّالحات في القولِ والعملِ والاعتقادِ، ويُرجى منها خيرُ الدّنيا والآخرة بحصول الآثارِ الصّالحةِ النّافعةِ، ومُشاهدةُ خوارقِ العادات خوّلتْ لزَكَرِيَّا الدّعاءَ بما هو منَ الخوارق، أو منَ المُستبْعَداتِ؛ لأنّه رأى نفسَه غيرَ بعيدٍ عن عنايةِ اللّه تعالى لا سيّما في زمنِ الفيضِ أو مكانِهِ؛ فسألَ الذّريةَ الطّيّبةَ؛ لأنّ ذلك طِلْبةُ أهلِ الخُصوصِ[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/481.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1203.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.

نكتة الدُّعاء بالعُمومِ لـ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ وإرادة الخُصوص (الولد الذَّكر):

تـــوافـــقـــتْ مُـــعـــجـــزاتُ وكـــرامـــاتُ آل عمـــــران وأقـــربـــائِـــهـــم في الـــذّريّـــةِ وتـــمـــخـــورتْ حولَها

المُلاحظُ أنّ مُعجزاتِ آل عمران وأقربائِهم كآل النّبيّ زَكَرِيَّا عليه السلام تمحورتْ حولَ الذُّريّة؛ فبدأتْ بكرامةِ أمِّ مريمَ بما وهبَ اللّه لها منَ الخيرِ؛ ومرّتْ قصّتُها، وهي تهَبُ ما في بطنها مُحرّرًا طلبًا للذِّكرِ، فوضعت أنثَى كان لها منَ الأثرِ الكبيرِ على تغييرِ مسارِ التّاريخِ الإنسانيِّ؛ فرُزقتْ بمريمَ عليها السلام التي ستكونُ في قابلِ الأيامِ أُمًّا لخاتمِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، في مُعجزةٍ فريدةٍ من نوعِها؛ ثمّ بكرامةِ ما وهبَ اللّه لزَكَرِيَّا، ثمّ بكرامةِ مريمَ، وما سيُوهبُ لها، فهي كلُّها محطُّ الذّريّة، ثمّ إنّ يحيى بنَ زَكَرِيَّا، وعيسى بنَ مريمَ، لم يكن لهما ذرّيّةٌ. من هنا فقد سبقتِ الإشارةُ إلى الاهتمامِ بالذُّريّة، فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34].

الذُّرية لفظٌ يقعُ على الواحدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنثى، وهنا طلبَ الذَّكرَ

والذُّريةُ هنا الولدُ، وهو اسمُ جنسٍ، تقعُ على الواحدِ والجمعِ[1]، كما أنَّ الوليَّ يقعُ على اسمِ جنسٍ كذلك، من قولِه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: 5]؛ وأرادَ فيه بالذّرية واحدًا، ودليلُ ذلك طلبُه وليًّا، ولم يطلُبْ أولياءَ[2]. فالذُّرية هي النّسلُ، وهو لفظٌ يقعُ على الواحدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنثى، وهنا طلبَ الذَّكرَ. مع أنّ فيه إشعارًا بكثرةٍ ونَسْلٍ باقٍ؛ فأُجيبَ بولدٍ فردٍ لمّا كان زمانَ انتهاءٍ في ظهورِ كلمةِ الرُّوحِ، وبأنّه لا يَنْسلُ، فكان يحيى حَصورًا لغلبةِ الرُّوحانيةِ على إنسانيتِه[3]. لقوله في سورة مريمَ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾؛ إذ حَصَرَ بها دُعاءَه على ولايتِه له، فكان حَصُورًا لا يَنسلُ، ولو كان دُعاؤُه كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34] لتوالدَ ونسلَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/388.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.
(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

بيانُ تأكيد الخبر في الفاصلة:

فائدة التوكيد تقرير اللسان ما اطمأنَّ إليه القلبُ من استجابة الدّعاء

تحوّلَ الإنشاءُ في الفاصلة إلى خبرٍ مؤكَّدٍ بـ (إنّ) بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وفائدةُ التأكيدِ هنا كاشفةٌ عن ثقةِ الدّاعي زكريّا عليه السلام بأنَّ دعاءَه مُجابٌ، وكأنّه يقرّرُ بلسانِه ما اطمأنَّ إليه قلبُه، فالحقُّ - سبحانه - ليس بحاجةٍ إلى توكيدٍ.

بلاغة المَجاز في الفاصلة:

السّمع بمعنى القدرة على إجابة الدّعاء

وسَمِيعٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ بناءُ اسمِ فاعلٍ[1]، أي: إنّك مُجيبٌ لمن دعاك على الشَّرائط التي بها تُدْعَى[2]؛ فليس المرادُ منه أن يسمعَ صوتَ الدُّعاء فذلك معلومٌ، بلِ المرادُ منه أنْ يُجيبَ دُعاءَه ولا يُخيّبَ رجاءَه، فالسَّميعُ: بمعنى السَّامع. أراد مُجيبَ الدُّعاء[3]، وقد أجابَه الحقُّ تعالى فأرسل إليه الملائكةَ مُبشِّرةً، وهذا متأكّدٌ بما قال تعالى حكايةً عن زَكَرِيَّا عليه السلام في سورة مريمَ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 4][4]. أي: لم أكنْ غيرَ مُجابِ الدَّعوة، فكنتُ مُجابَ الدَّعوةِ. فسميعٌ بمعنى مُجيب، وهو مَجازٌ لُغويٌّ مُرسلٌ بعلاقةِ اللُّزوم بين السّمعِ والقُدرة على الإجابةِ، ويمكنُ أن يكونَ المعنى أنَّ قُدرتَك على الإجابةِ هي كقُدرتِك على سماع الدُّعاء، فيكونُ استعارةً لعلاقةِ المُماثَلةِ في القُدرة.

وجه التعبير بصيغة المبالغة:

وصِيغةُ المبالغةِ في ﴿سَمِيعُ﴾ كشفتْ عنِ التّلهُّفِ والرّغبةِ في طلبِ إجابةِ دُعائه.. واستحصال الذّرّيّة ولدًا وليًّا له.

براعة التَّوشيحِ في الفاصلة:

ختمَ بالدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وبدأ به، على سبيلِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(3) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/207.

التّوشيح[1]، وهذا يُوحي للقارئ بمدَى اليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا – عليه السلام، وهو في موقفِ الدُّعاء ذاك، فبَدأ كلامَه بأسلوبِ الدُّعاء ﴿رَبِّ﴾ أي يا ربّ، وختمَها بكلمةِ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾، فقال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

في التوشيح بيانٌ لليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا عليه السلام، وهو في موقفِ الدُّعاء

بيانُ التّذييلِ في الفاصلة:

في قولِه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تذييلٌ، فائدتُه: تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا، إذْ إنّ فحوى الآيةِ كلِّها، ومجموعَ ما أُريدَ فيها أن يُستجاب الدُّعاءُ، ويُوهَبَ الولدُ ليكونَ وليًّا لزَكَرِيَّا؛ ولذلك أُكِّدتْ بـ (إنّ) لتقوية معنَى التَّذييل للآيةِ الكريمةِ.

فائدة التذييل تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا بأن يُستجاب، ويُوهَب الولدُ

توجيه المتشابه اللفظي:

ورد لفظ ﴿سَمِيعُ﴾ مرّتين في القُرآن الكريم مُضافًا إلى ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾؛ الأُولى: في دُعاء زَكَرِيَّا هنا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، والثّانيةُ في دُعاءِ إبراهيم عليه السلام في قولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]، والمُلاحَظُ أنّ كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّريّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّننِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ، وفي هذا إيماءٌ بالعلاقةِ والصّلةِ بما ذُكر منَ اصطفاء آل إبراهيم بآل عمران كما ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ في قولِه: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]، إذْ إنّ الأنبياءَ كلَّهم منَ المُصطفَيْن الأخيار. وزاد اللام في لفظ السَّميع في آية إبراهيم؛ لكونه ثناءً بعد إجابة الدّعاء، وتحقّق الوعد.

كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّريّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّننِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ

(1) قال السيوطي في الإتقان: 1/355: وأمّا التوشيح: فهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»